٦. في عاصمة الرشيد

لا يربط عاصمة الرشيد القديمة بماضيها غير حلقات منظورة قليلة. فالمدينة الجديدة المستلقية على ضفتي دجلة موطنٌ كثير الغبار ليس له طابع مميّز غير مساجده وسوقه الكبيرة وبقايا الاسوار التي هدمها الأتراك العثمانيون في القرن السادس عشر. وعلى طول تحصينات « الباب الوسطاني » الرائعة تبدو المدافع واكداس القذائف الحديدية وكأن المعركة الختامية لم ينقضِ عليها غير شهرٍ او شهرين. وكلٌ من تلك المدافع على اختلاف ضروبها وحجومها تحفة أثرية حقاً. وقد صُنع بعضها في فرنسة، وبعضها في النمسا، ولكن كثرتها الكبيرة سُبكت في مصانع الحدادين العرب بدمشق.

ويرقى المسجد الجامع القائم قرب ساحة الملك فيصل الاول الى العهود العباسية. ومئذنته المنحنية إنما التوت، في ما يقال، من اثر النيران التي أضرمها المغول الغزاة عام ١٢٥٨ بعد استيلائهم على المدينة. اما المسجد الملكي القائم عند الباب الشمالي من بغداد، فيمتاز بقبته الرائعة. وهو من أضخم المساجد في المدينة. والحق ان الجوامع، أو بيوت الله التي تُقصد ابتغاء التعبد والصلاة في المحل الاول، أقلّ

زينة وزخرفاً ، في الأعم الأغلب ، من المساجد التي هي مدارس للتعليم الديني اكثر منها مجرد بيوت للصلاة ، كمسجد الكاظمين المفخم بأذنه الاربع الذهبية مثلاً .

وفي العراق مسجد كربلاء وهو مكان مقدس عند الشيعة . ففي كربلاء استشهد الحسين ، ابن فاطمة بنت الرسول ، بعد ان هزم الامويون جنده المدافع عن حقه في الخلافة .

وتنقسم بغداد ، مثل بابل القديمة على عهد نبوخذنصر ، الى بغداد الشرقية وبغداد الغربية يفصل مابينهما نهرٌ هو ههنا نهر دجلة. وتستأثر بغداد الغربيـــة بمعظم المعالم الاثرية : القصر العباسي ، والسوق ، والباب الوسطاني ، وضريح من ذلـــك الضرب الشبيه ببيوت النحل يقال انه يحتوي على رفات المنكة زبيدة زوجة هرون الرشيد .

وشارع الرشيد ، هو شارع بغداد القديمة الرئيسي نفسه . وهو يمتد في موازاة نهر دجلة، وينهض فيه القصر العباسي ، والسوق ، والفنادق ، كما تنهض في نقطة أبعد الى الشمال الضواحي وبيوت اللهو ، وهي نوادٍ ليلية أنشئت على الطراز الايطالي والفرنسي حيث يقدم اهل الفن الاوروبيون والاوروبيات بضاعتهم ، وهي عادة بضاعة من الدرجه الثالثة ، ويقدّم المطبخ الجيد ، الى حدّ معقول ، بضاعته . أما الملاهي العربية فمنشورة في طول العاصمة وعرضها . وكان احدها يدعى « ملهى الروكسي » ويقع غير بعيد عن شارع الرشيد قرب « اوتيل سميراميس » . ولقد زرت ذلك الملهى ، وانتظرت حتى العاشرة ، عندما يبدأ البرنامج ، ثم صبرتُ

تمسي على ساعتين من الفكاهات غير المحتشمة والموسيقى الابتدائية التي تؤلف مقدمة لرقصات البطن ، وهي مـــادة البرنامج الرئيسية . وفي بغداد ملاهٍ كثيرة غير «ملهى الروكسي» ولكنها متشابهة كلها ، وزيارة الى احدها تغنيك عن ان تقصد الى سائرها. وفيها ايضاً عدد من دور السينما المجهزة تجهيزاً فنياً حسناً ، ولقد سعدت بان أشهد فيلم « لص بغداد » (الذي استوحت هوليوود موضوعه من الف ليلة وليلة) وانا في تلك المدينة . وكان النظارة من العرب يغربون في الضحك طوال عرض الفيـــلم . ولكني لم اوفق الى معرفة ما اذا كانوا يضحكون للشريط ام عليه . ذلك بان الذين وجهتُ اليهم هذا السؤال كانوا من اللطف والكياسة بحيث لا استطيع الاطمئنان الى آرائهم. كان واضحاً انهم حاولوا ان لا يجرحوا شعوري بوصفي اميركياً .

وكان اوتيل سندباد ، حيث قضيت القسم الاكبر من ثلاثة اشهر عشتها في العراق ، يقع في منتصف بغداد تقريباً بين ساحة فيصل الاول ومستودعات « نفط الرافدين » . إنه بناء ذو ثلاثة أدوار ، شيد على شكل U مربعة تطلّ على دجلة . اما غرفه فتراوح مـــا بين الجناح الواسع الى الغرفة المفردة الصغيرة ذات الحمام . وقد نزلت واحدة مثل هذه تقع عند الطرف الجنوبي من الـ U فهي لا تستقبل الشمس الا بعد الظهر . وحتى تلك الساعة المتوهجة كانت الغرفة أشبه شيء بجوار في ثلاجة . وبرغم المدافىء الكهربائية والمدد الموصول من المياه الحارة كان الشارع اكثر دفئاً من غرفتي بعد الساعة العاشرة قبل الظهر .

وكان الدور الارضي ينتظم صالونات الاستقبال والمشرب والمطعم . وكان في المشرب ، وهو الركن المفضل عند ضيوف العاصمة من مهندسي النفط القادمين من شبه الجزيرة العربية وكركوك ، مستوقدٌ صغير وبارٌ طويل ، وعدد من الطاولات الصغيرة . وههنا حل الفستق الحلبي واللوز الاخضر محل فستق العبيد والبسكويت اليابس المملح . وكانت زجاجة الجعة التي تتسع لربع غالون تباع باربعمئة فلس . واذ كان هذا المبلغ يساوي اربعة أعشار الجنيه الاسترليني في وقت كان فيه الجنيه لا يزال مساوياً لـ ٤،٨٣ من الدولار ، فقد تبدّى لي بعملية ذهنية بسيطة أن زجاجة الجعة تلك خليقة بأن تكلفني نحواً من دولارين اثنين – وهو سعرٌ أكرهني على إيثار العرق الذي تباع الكأس الثقيلة منه بخمسة عشر سنتاً ليس غير . وكانت بعض زجاجات العرق تحمل علامات تجارية تمثل كبشين يتناطحان ، وكأنما هي نبوءة بالذي سيقع في الصباح التالي . لقد كان واضحاً ان مقطّر تلك الخمر كان واعياً أتم الوعي حقيقة البضاعة التي يقدمها الى الشاربين !

وكان المرء يستشعر الحاجة الى شراب دافىء بعد غروب الشمس . وفي الصباح الباكر كانت الخرارة تحوم حول نقطة الانجماد ، وكانت ثمة حاشية من الجليد على طول دجلة . وبعد فطور خفيف من البرتقال والليمون الحلو كان الفندق يقدم الى زبائنه الانكليز عصيدة من النوع المعروف بالـ porridge ويقدم الى غيرهم بيضاً وضروباً من لحم الضأن . وكنت لا أفرغ من

تناول فطوري حتى أرتدي معطفي الثقيـــل وأمضي الى سراي الحكومة . فليس ينبغي ان يُنسى اني قدمت الى العراق لأستطلع وجهة النظر العربية في حرب فلسطين . وفي كانون الثاني سنة ١٩٤٩ كان يرين على تلك الحرب هدوء قلق ، وكنت أبتغي ان أمضي الى الجبهة قبل أن تُعقد هدنةٌ موقتة بدت لي محتومة . أقول هدنـة ، لأني كنتُ واثقاً من أن الحرب لن تنتهي مـا بقي في فلسطين شيء اسمه اسرائيل .

وجرياً مع نزعتي الى ان أتأتّى للاشياء من سبيلها الصعب ، قنعت قبيل سفري من نيويورك بسمة مرور اجازت لي الاقامة ثلاثة ايام ليس غير في الاراضي العراقية . ذلك بأن قنصل العراق العام عجز عن منحي سمة عادية تجيز لي ان اقيم في العراق ثلاثة أشهر ، بسببٍ من اضطراره الى ان يبرق الى بغداد للحصول على ترخيص رسمي ، وهو عملٌ يستغرق مدة تراوح ما بين عشرة ايام واسبوعين . وإذْ كنتُ واثقاً من قدرتي عـــلى أن أشرح للسلطات العراقية حقيقـة اهدافي بمجرد وصولي الى العراق ، فقد قبلتُ في حبور تلك السمة العابرة التي تسبب لي الآن أشد البلاء .

وليس معنى ذلك أن السلطات العراقية ضيّقت عليّ الخناق . لا . لقد كانت غايةً في الكياسة . فبعد اربـــع وعشرين ساعة انقضت على تسليم الفندق جواز سفري الى الشرطة استدعتني دائرة التحقيقات الجنائية العراقية . كان الصوت المتحدث عـلى التلفون يملك ناصية اللغة الانكليزية ، وكان يقطر لطفاً ، ولكنه يسألـني ان احضر الى الدائرة في « اول فرصة تتاح لي » .

وكانت دائرة التحقيقات الجنائيـة العراقية تقوم قرب القصر العباسي على ضفاف النهر ، خلف فِناء يغصّ بالجماهير والحرس . وكان بعض الجنود العراقيـين ، المرتدين سترات من الكاكي البريطاني وبنطلونات قصيرة تنتهي الى الركبـة وساقيّات * ملتفة فوق احذيتهم العالية السوداء ، يحرسون النقاط الستراتيجية هناك . حتى اذا سألتُ احدهم ، بالانكليزية ، أين استطيع أن أقابـل الضابط المسؤول حيّاني تحية عسكرية واستدار على عقبه ثم غاب عن نظري في مجاز كان قائماً خلفه . وبعد دقيقة ظهر من جديد يصحبه موظف مدني يتكلم انكليزية عرجاء . وكررتُ سؤالي ، فابتسم الموظف ابتسامة تؤذن بأنه فهمني ، وقادني نحو سلّم وأومأ إلى باب الضابط المسؤول ، ثم حيّاني وتركني أدبر أمري بنفسي .

كانت غرفة الضابط ملأى بالموظفين والمكاتب واجهزة التلفون وكانت تمور بالحيوية والنشاط . اما في ما عدا ذلك فكانت جرداء قارسة . وكانت المصابيح المتدلية من السقف ضرورية لأن الغرفة كانت ذات نافذة واحدة . ولم يُزعج دخولي احداً من القوم ، غير الضابط الذي كان يتوقع زيارتي .

كان يرتدي ثياباً مدنية أنيقة ، وكان حاسر الرأس ، لطيفاً كيّساً . وكان ذا شارب صغير داكن وعينين سوداوين واسنان سليمة . وكانت ابتسامته ترشح بالمودة . حتى اذا جلستُ بعد ان فككت أزرار معطفي وأسلمتُ قبعتي وعصاي لأحـد الحجاب سألني ما اذا كنتُ أوثر القهوة ام ذلك الضرب من الشاي العراقي

* الساقية ما يلف على الساق من قماش او غيره .

المضاف اليه قدرٌ من القرفة والسكر والليمون الحامض . وكان هذا الاخير يحتفظ بحرارته مدة اطول ففضلته . وفي الوقت نفسه أوضح الضابط لي بعض الحقائق .

لقد اخطأتُ ، قبل كل شيء ، بقبول سمة مرور من غير ان أتخذ ايّ ترتيب من اجل مغادرتي العراق . ولقد كنتُ ، ثانياً ، اميركياً وصحافياً ، والصحافيون الاميركيون موضع ريبة في العراق منذ الاشهر الاولى من الحرب عندما زار عدد قليل منهم بغداد فمنحتهم السلطات العراقية امتيازاتٍ أساءوا استعمالها . والذي يبدو ان هؤلاء الصحافيين غادروا العراق الى تل ابيب وحيفا وكتبوا قصصاً سرّت الرقيب الصهيوني ولم تسرّ العرب بحال . وفوق هذا كله ، فقد كانت معي آلتان من آلات التصوير .

وكانت المصوّرات محظورة في العراق شأنها في مصر . وكان يتعين عليّ ان أصرّح بوجود الآلتين معي وأنا بعدُ على ظهر الباخرة ليصار الى وضعهما في عهدة الجمرك ريثما يُبتّ في أمرهما . ولم اكن عارفاً بذلك ، ولم ينبهني احدٌ اليه الا بعد مغادرتي السفينة . ولم يسألني احدٌ عنهما خلال مقامي في البصرة ، او اثناء رحلتي بين البصرة وبغداد . وعلى اية حال فقد كنت املك آلتي تصوير غير مسجلتين ، وكنت متهماً بتهريبهما الى البلاد . وكانت الآلتان في غرفتي بالفندق ، فاقترحتُ أن أسلمّهما الى دائرة التحقيقات الجنائية ، ولكن اقتراحي رفض في لباقة ولطف . ونُصحتُ بأن لا أخرجهما من الغرفة إلا بعد ان يتبين وضعي ويتضح . ثم ان الضابط نهض من كرسيه وتمنّى لي نهاراً طيباً ،

قائلاً إنه سوف يتصل بي في ما بعد .

وطوال اسابيع ثلاثة ، قمت بزيارات يومية الى مكاتب دائرة التحقيقات الجنائية ، وخضعت لأبرع وألطف استنطاق عرفته في حياتي . ولقد كان خليقاً بالذين شهدوا التحقيق من رجال الجيش العراقي أن يعتقدوا أني والضابط صديقان قديمان التقيا بعد غياب ، وأنه كان يسألني عن أسرتي واحوالي . وكان ثمة دائماً قهوة او شاي . ولم تكن الجلسات لتطول اكثر من ساعة واحدة . حتى اذا انتهى ذلك التحقيق الى غايته ، في أواخر كانون الثاني ، اجتمع لدى الدائرة ملفٌ كامل عني ، عن حياتي ومؤلفاتي .

وفي الوقت نفسه أطلقت حرياتي واحدةً إثر واحدة . لقد رُفع الحجز قبل كل شيء عن آلتي التصوير . وعُيّن لي ، من طريق علي باشا مدير الشرطة ، ضابط بغداديّ شاب من رتبة ملازم ثانٍ ليرافقني بوصفه رقيباً ودليلاً وحامياً في آنٍ معاً . وكان المفروض نظرياً أن يجد العراقيون حرجاً في التصوير الفوتوغرافي شأنَ المسلمين المستقيمين في شمالي افريقية . ولكني وجدتُ ان هذا غير صحيح في العاصمة العراقية . فما أكاد أُخرج الكاميرا من صندوقها حتى يحتشد السابلة بمثل السحر ، ويُضطر مرافقي الى ان يُقصي الجمهور المتلهف حتى يصبح في ميسوري أن التقط صورة ما . ولكنّ الفرصة كثيراً ما كانت تُفلت من يدي . فساحة الملك فيصل ، مثلاً ، ساحة تقل تقود الى جسر فيصل الاول عبرَ دجلة الى بغداد الشرقية . وكانت تنتظم عدداً من وكالات السيارات التي تعلن عن بضاعتها من « فورد » ، و « ميركوري » و « كرايزلر » بلوحات ضخمة اميركية

الصنع عُلقّت فوق الشارع . والى أدنى ، عند سطح الشارع ، كانت عين الناظر تقع بين الفينة والفينة على قوافل الجمال وقطعان الغنم مما يذكّر بأن العراق لمّا ينفصل بعدُ بالكلية عن ماضيه الشرقي . وكنتُ احبّ ان التقط بضعة رسوم لأمثال هذه المفارقات الغريبة الطريفة . ولكني لم اوفق الى ذلك قط . فقد كان كثير من الصغار المفترة شفاههم عن ابتسامة ، وكثيرٌ غيرهم من الكبار الفضوليين يعوقون المشهد ويحيلونه عن روعته الى وضع اقلّ تعبيراً واثارة للشوق .

وكان الملازم الذي يرافقني يمثل معي دور ذلك البوليس السري الذي يكلّف في بعض الاحيان بأغراء من تحوم حولهم الريب بالقيام بعمل غير مشروع لكي يصبحوا عرضةً للعقوبة . والواقع ان غرائز السائح تبدو دائماً وكأنما تركّز نفسها على مظاهر الحياة الاكثر وضاعةً في البلد الغريب . وكان جماعات من الاطفال العرب الصغار ، ابناء اللاجئين الفلسطينيين الذين ضربَ عليهم البؤس والفقر ، كثيراً ما يبرزون امامي بأنوفٍ راشحة واقدام حافية شديدة القذارة ، تحت أسمالٍ خِلَقَة بالية ، فيبتسم ملازمي العسكري ويقول : « لقطة جيدة ؟ شيء طريف ؟ » وأضطر أنا الى ان اقطّب جبيني في وجهه . وفي ما بعد ، عندما اردت ان التقط رسم نفر من البدويات ذوات الخدود الموشومة ، وكنّ يسقن قطعاناً من الغنم والحمير ، نهاني عن ذلك قائلاً « انهن نسوة ليس غير ، وان الصورة الفوتوغرافية لكثيرةٌ عليهن . » وأخيراً وفقت الى الحصول على اجازة من دائرة التحقيقات الجنائية

وبها تمّت لي حرية العمل كاملة . وطوال اسبوعين اثنين كنت الاجنبي الوحيد القادر ، في العراق ، على ان يأخذ الصورة التي يريد . وحتى موظفو السفارة الاميركية شرعوا يرسلون اليّ مصوّراتهم لكي التقط لهم بواسطتها صوراً لمساجد العراق وغيرها يضيفونها الى « البوماتهم » .

وخلال هذه المدة أُطلق جواز سفري من عقاله ، فأقمت في بغداد ، على نحوٍ شرعيّ ، ريثما أوفق الى الحصول على اجازة من وزارة الدفاع الوطني تمكنني من الالتحاق بالقوات العراقية في فلسطين . وهكذا زرت المدائن وبابل وصوّرت كل ما يحسن تصويره بالأسود والأبيض ، وبالألوان .

وكان عليّ ان أواجه مشكلة تظهير الافلام الملونة . وكان موظفو مكتب المعلومات الاميركي في بغداد قد أجازوا لي أن استعمل غرفتهم الفوتوغرافية المظلمة وما تشتمل عليه من اسباب العمل . ولكن حرارة الماء خلقت مأزقاً ليس من اليسير الخروج منه . كانت المياه منجمدةً ، ونادراً ما كان ميزاني يسجل درجةً اعلى من ٤٥ فهرنهايت . ومن هنا فسد قسم كبير من الرسوم ، واعتبرت نفسي سعيداً حين مكّنتني مختلف الحيل التي اصطنعتها من انقاذ ٦٠ ٪ من اللقطات .

وقامت وزارة الداخلية ببادرة تنمّ عن بالغ الكياسة واللطف حين أجازت لي أن أُفيد من طائرتي هيليكوبتر يقودهما اميركيان شابان ، وكانتا تُصطنعان لأغراض النضح الجوي في المزارع الاختبارية بالزعفرانية ، على مبعدة اثني عشر ميلاً من بغداد .

والواقع ان المواصلات عسيرة في الشتاء في ارجاء الشرق الاوسط كله ، لأن أولى ضحايا العواصف والسيول هي الطرق عادةً ، فهي موحلة يعسر اجتيازها . صحيح ان هذا الحكم لا ينطبق على الطرق العريضة المعبدة ، ولكنّ هـذه ما تزال ترفاً نادراً ، نسبياً ، في منطقة تعتمد مواصلاتها الى حد كبير على الجمال والحمير والطرق النهرية.

وطائرات الهيليكوبتر مدهشة في ريادة الصحـــراء بخاصة . ولكن العيب الرئيسي في تينك الطائرتين اللتين وُضعتا في تصرفي ان طاقتهما على نقل مقدار صالح من الوقود كانت محدودة . ومن هنا كانت رحلاتها قاصرةً على الاهداف الواقعة على مبعدة ساعة او نحوها من قاعدة انطلاقها . وأياً ما كان فقـد أفدت منها في رحلة قمت بها الى عكرقوف ، حيث التقطت مجموعـة من الصور الملونة ، الناجحة حقاً ، للخرائب التاريخية .

وعكرقوف ، الواقعة وسطَ المنخفض الجيولوجي العظيم الذي يحمل اسمها ، لغز آثاري محيِّر . فبعض الثقات يعتقدون انها اقدم عهداً من « أرك » و« أريدو » . وبعضهم الآخر يعتقدون انها احدث عهداً من « أور » او « بابل » . وأياً ما كان فأن خرائب ، ذلك القصر او البناء العام السامقة تؤذن بأنه شُيِّد من آجُرٍّ مجفف بالشمس ومن قضبان ، وبأن سطوحه قـد دُعمت بجسور خشبية كانت قد أقحمت في الجدار الآجريّ الناهض تحتها . والحقّ ان البناء الرئيسي الذي ما يزال قائماً بلغ ارتفاعه في وقت من الاوقات مئة قدم او تزيد ، وكان يهيمن على المنشآت المجـــاورة كما هيمن برج بابل على الأبنية المحيطة به في تلك العاصمة العريقة في القدم .

وكان الطياران قد ضاقا ذرعاً بالانتظـــار . وكانت مهمتهما مقصورة على مجرد نضح الفسائل والنباتات ، من الجو ، حـــين يُخشى عليها من الحشرات . وفي فصل الشتاء ، لم يكن ثمة مثل هذا الخطر ، فليس لديهما من عمل غير التحليق بي فوق الصحراء . وكان كلٌ منهما قد رغب في ان يقوم بعمل من شأنه ان يخدم العرب اثنـــاء الحرب ، ولكن الحكومة لم تسمح بذلك . وكانا ، شأني أنا ، ناقمين شاعرين بخيبة أمل مريرة . فكنـّا ننفـّس عن مشاعرنا الثائرة بان نصبّ اللعنات على محتلي البيت الأبيض وأصدقائهم من الصهيونيين . لقد صعب علينا ، ههنا في الشرق الاوسط ، أن نصدّق أن حكومتنا يمكن ان تجازف بمستقبل الولايات المتحدة من اجل الحصول على الرشوة التي يقدمها اليها الصهاينة : أعني أصوات اليهود الانتخابية . كان في استطاعتنا أن نفهم دناءة الصحافة الأميركية ، ولكن لم يكن في وسعنا أن نعذرها . اما ان تتردى ادارة حكومية في حمأة الدناءة وتضحي عن سابق تصور وتصميم بمستقبل الامة الاميركية نفسها لكي تبقي احد الاحزاب السياسية في محل السلطة ، فهذا ما لم نستطع أن نفهمه أو أن نلتمس لها العذر فيه . لقد كان ذلك في نظرنا خيانةً لم يقترف مثلها اميركي من قبل ، وهي لا تزال كذلك الى اليوم عندي أنا شخصياً .

ولقد اكتشفت أننا لم نكن وحدنا نفكر هـــذا الضرب من التفكير . ففي مشرب (بار) الاوتيل الدافىء ، وبعد غداء من السمك النهري وشرائح لحم البقر ، كان الاميركيون القادمون

من حقول الزيت في شبه الجزيرة العربية لقضاء اجازاتهم في العراق، او العائدون من ايران بطريق بغداد، يجتمعون حول المشرب ويتناقشون في الاحداث الجارية بفلسطين. وكانت الفالوجة على وشك السقوط، آنذاك. ذلك بأن مقاومة الحامية المصرية الباسلة كانت قد أخذت تضعف شيئاً فشيئاً بعد أن نفدت ذخيرتها الحربية الخاصة بالاسلحة الخفيفة، وبعد أن أنهك الجوع قوى الرجال المدافعين عن موقعهم المحاصر. وكان واضحاً أن مصر سوف تجد نفسها مكرهةً في وقت قريب على ان توقع هدنة مع اليهود. وتبين اكثر فاكثر ان العرب قد خسروا الحرب عندما دعيت القوات الاردنية للعودة الى قواعدها بعد ذلك الزحف الظافر الذي قامت به نحو البحر الابيض المتوسط، وعندما التزم العرب احكام الهدنة في حين خرقها الصهيونيون، وبذلك صار لهم سلاح جوي متفوق الى حدّ غامر، وجيوش مزودة بالاسلحة الاوتوماتيكية الحديثة، بل الممعنة في الحداثة.

ومن غير ما استثناء على الاطلاق كان جميع الاميركيين الذين لقيتُهم في الشرق الاوسط، الآن وفي ما بعد، يستشعرون العطف على العرب، والحقد البالغ حداً بعيداً من المرارة، في كثير من الاحيان، على الاميركيين في الوطن الذين ايدوا الصهيونيين وناصروهم لأغراض عاطفية او مادية. ونال **كل من دين اتشيسون وفيلكس فرانكفورتر نصيبه من النقد. ولكن اللعنات التي انصبت على رأس هاري ترومان فاقت كل ما عداها، سواء من حيث الحجم ام من حيث الصدق**

والحرارة القلبية :

وكان اصحاب الفندق يراقبوننا في كثير من الذهـــول ، ويراقبون كيف كانت الويسكي والجعة والعرق تزيد لهجتنا حدةً وعنفاً . صحيح ان انكليزيتهم لم تكن سلسة ، ولكنهم استطاعوا ان يدركوا فحوى الكلام ، وليست المفردات اللغوية التي يصطنعها المشتغلون بصناعة الزيت معقدة جداً . وكان أصحاب الفندق هؤلاء كلداناً نصارى . والواقع ان الكثرة الكبيرة من الفنادق في العراق يملكها ويديرها الكلدانيون الذين يحفل تاريخهم بالاضطهاد بقدر ما يحفل تاريخ اليهود ، ولكنهم لا يتخذون من ذلك ، شأن اليهود ، ذريعة للاعتداء على حقوق الآخرين .

ويبدو ان العراق يضمّ الكثرة المطلقة من الكلدانيين الذين خلّفتهم الامبراطورية البابلية ، وهو وضعٌ لا مجالَ كبيراً للتعليق عليـــه لولا أن موطن الكلدانيين الآخر هو اليوم في ديترويت بولاية ميشيغين . والذي يظهر ان لكل كلدانيّ في بغداد أنسباء يعملون في مصانع السيارات بديترويت ، وأن كثيراً من هؤلاء المقيمين في بغداد عملوا فترةً ما في تلك المصانع . وكان جورج ، حلاّل المشكلات في فندق سندباد ، قد قـــدّم الى السفارة الاميركية طلباً بالهجرة منذ أربع سنوات أو اكثر ، وكان يتوقع أن يتلقى موافقةً على ذلك في كل لحظة . لقـد تخيّر منزله منذ الآن ، وهو يعرف اسم الشارع واين يقع وخصائص الجوار ورقم تلفون البيت . وإنه لمولع في الحديث عن هذا كله .

وحين تقدّم شباط نحو نهايته غدت الشمس اكثر دفئاً ، ولم

يعد من الضروري ان تهرع الى الموقد ، بعد طعام الصباح ، لكي تحتفظ بقدر من رشاقة الحركة . وبين السيارة والهيليكوبتر وُفقتُ الى ان أطوّف في جزء كبير من العراق ، ولم استشعر الأسف إلا لعدم تمكني من الشخوص الى سامرا . وكان شيخ تلك المقاطعة قد دعاني ، مرتين ، الى مرافقته الى هناك في سيارته الكبيرة الفخمة من طراز « باكارد » ، ولكن المطر حال في كلّ من المرتين دون ذلك لأن الطرق كانت أسوأ من أن تجوزها السيارة بعد أن تقطع الطريق العامة المعبدة . وكنتُ على مثل اليقين من أني إذا ما رأيت الشيخ بعد عودته من البوادي – وكان عضواً فيه – ودعاني لقضاء نهاية الاسبوع التالية في ضيافته فسوف تهب عاصفة من الغبار يوم الاربعاء ، ليعقبها المطر يوم الخميس ، وعندئذ يقضي الشيخ نهاية اسبوعٍ كئيبة في الأوتيل أو مع الأصدقاء . وهكذا ظلّ مسجد سامرا الجامع في نجوةٍ من آليّ المصورتين ، ولكن بسببٍ من الاحوال الجوية ليس غير .

والواقع أن هذه المصادفة شغلت بال الشيخ بعض الشيء . لقد ذكّرته بتلك الاسطورة العربية القديمة التي اقتبسها ووسّعها كثير من الكتاب المحدثين ، والتي يمكن ان نجعل لها عنواناً « موعد في سامراء » . ويحسن بي ان ألخصها هنا للذين لم يسمعوا بها فأقول : ان خادماً قصد الى السوق صباحاً فلقيَ عزرائيل يمشي بين الدكك التي تُفرش عليها البضاعة . ولم يكد عزرائيل يرى اليه حتى رفع ذراعيه ، فخيّل الى الخادم الشاب انه يتوعده ويتهدده .

وفي ذعر ولى الخادم هارباً الى سيده ، وحدّثه بالذي رأى ، متضرعاً اليه ان يعطيه جواداً يهرب على متنه الى بيت أبيه في سامراء . ولم يضنّ عليه سيده بذلك ، ولكنه لم يكد يقلّب الامر في ذهنه كرةً اخرى حتى اخذه القلق ، فمضى بنفسه الى السوق . وهناك ألفى عزرائيل يمشي مختالاً بين الخضر وآنية الخزف . فتقدم التاجر نحوه وأنّبه لما سلفَ منه من تهديد لخادمه . فما كان من ملك الموت إلا ان ان تطلّع الى الرجل في دهش وقال :

« أنا لم أهدّد خادمك ، ولكني اكتفيت بأن رفعتُ ذراعيّ تعبيراً عن دهشي لأن اجده هنا في بغداد ، برغم اني على موعد معه ، غداً ، في سامراء ! »

وفيما كانت الاحوال الجوية آخذة في التحسن ازددتُ ضيقاً بتأخر وزارة الدفاع في البتّ بأمر الترخيص لي في الالتحاق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة . فعلى الرغم من الهدنة كان لا يزال ثمة نشاط حربيّ عند ملتقى نهري اليرموك والاردن . وهناك كانت القوات السورية المقتقرة الى السلاح قد أمدت بكتيبة عراقية في تلك المنطقة التي عُرفت بالمثلث العربي . فالى الجنوب من جبل حرمون وعلى طول الشاطىء الجنوبي الشرقي من بحيرة طبريا كانت الحرب تشنّ في قطاع تاريخيّ ، غير بعيد عن هضاب حطين الحافلة بعظام القتلى حيث هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين هزيمةً منكرة في الرابع من تموز سنة ١١٨٧ .

وفي تلك الاثناء قدّمتُ الى الزعيم (الكولونيل) عبد المطلب بك رئيس دائرة المباحث العسكرية العراقية . ولكني قدّمتُ هذه

المرة بوصفي صديقاً. وكان الزعيم عبد المطلب بك ودوداً كذلك. كان رجلا بديناً ذا وجه عريض ذكيّ، وشعر اسود جعد، وعينين دافئتين. وكان بوصفه حسن الثقافة، واسع الاطلاع، ذا عقل حصيف وفكر متطور، واحداً من اكثر الرجال الذين لقيتهم في حياتي فتنةً وأسراً، من غير شك. كان فكهاً ظريفاً. ولم يكن حموتاً، ولكنّ كلماته كانت تنطوي على قيمة، فأنتَ إن أخطأتها أخطأتَ كثيراً مما يرمي اليه. وكان مكتبه يقع عبرَ مجازات ينتشر فيها الحرس واللوحات المعلقة عـــلى الجدران والمحذرة من جاسوسية العدو، ولكنه مؤثث في بساطة فهو لا يحتوي على شيء لا حاجة اليه البتة. ولم يكد المجلس يستقرّ بي حتى جاءوني بفنجان من القهوة العابق منها عبير حب الهال، ورحنا نتذاكر الاسباب التي تحدو بي على دراسة الوضع الحربي في « المثلث العربي » من وراء الخطوط العراقية. وبعد ساعة من الحديث العذب وافق على ان يبسط رغبتي هذه لمدير الدفاع الوطني ويدعمها لديه.

وفي ذلك النهـار نفسه اتصل بي سكرتيره ودعاني الى تناول طعام العشاء مع الزعيم وصديق له. وفي « فندق قصر دجـــلة » احتسينا شيئاً من الكوكتيل وألواناً من الطعام ممتازة؛ ثم أنفقنا بضع ساعات على الويسكي والصودا والحكايات. وفي موهنٍ من الليل سُئلت عن المواطن التي قُدّر لي ان ازورها في العراق، فأشرتُ في الجواب الى شيخ سامراء والى النحس الذي بدا وكأنه يحول دون ذهابي الى هناك.

ومن تلك النقطة تقدمنا الى الكلام على الحرب السيكولوجية

أو النفسانية. وكان النقيب (الكابتن) مكي – وهو ضيف الزعيم عبد المطلب بك – قد درس في المانية وعرف شيئاً كثيراً عن هذا الموضوع. والحق اننا اتفقنا جميعاً على ان العرب أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في حقل الدعاية لقضيتهم. صحيح أنهم انشأوا في واشنطون ونيويورك مؤسسة صغيرة تكاد تكون عديمة الجدوى عرفت بمكتب المعلومات العربي، ولكن هذه المؤسسة كان يعوزها المال، وكان القائمون عليها عرباً يجهلون القوى الجبارة التي توجه الدعاية الصهيونية بقدر ما يجهلون العقلية الاميركية. وهكذا ما لبثت هذه المؤسسة ان ألقت سلاحها في يأس، وقررت ببساطة انها عاجزة عن مقارعة اليهود في هذا الميدان.

وهنا ذكرتُ اني قابلتُ الوزير العراقي المكلف بالاشراف على شؤون الدعاية، واكتشفت أنه لم يعمل شيئاً تقريباً في العراق، ولم يعمل شيئاً البتة في الخارج. وحين سألتُ الوزير عما فعله للردّ على الدعاية الصهيونية في أميركة بسط يديه، ورفع عينيه، قائلاً:

« لا شيء على الاطلاق. لقد انضمت اميركة الى المعسكر المعادي، وليس من فائدة ترجى من الدعاية فيها. »

وابتسم الزعيم عبد المطلب بك والنقيب مكي لدن سماعهما هذا الحديث ابتسامةً كئيبة بعض الشيء. وللمرة الالف رحنا نناقش موقف أميركة من الحرب الفلسطينية.

ورأيتُ من واجبي ان أتولى انا شرح الموقف لأن كياسة مضيفي خليقةٌ بأن تحمله على الاحجام عن القيام بأيما مبادرة قد

تجرح شعوري الوطني . ولم يكن ذلك أمراً يسيراً بالنسبة الي أنا أيضاً . ذلك بأن المرء قد يصب اللعنات على رأس حكومته حين يكون مع نفر من مواطنيه ، ولكنه ما إن يجتمع الى نفر من الاجانب حتى يتورع عن التجريح السافر والطعن البليغ . وايا ما كان ، فقد أوضحت للضابطين العراقيين اعتقادي الشخصي بان المسألة تتلخص بكل بساطة بان الكثرة الكبيرة من الاميركيين لم تولِ المسألة تفكيراً ما ، وان قليلاً منهم يفهمون ايما جزء من الاساس التاريخي الحقيقي لفلسطين والقضية الصهيونية فهماً صحيحاً ، وان معظم معلوماتهم — او مغلوطاتهم — عن الموضوع مستمدة من قراءتهم ، وهم صغار ، للتوراة او « العهد القديم » في مدرسة الاحد والكنيسة .

من هذه الانطباعات المبكرة تقبّل معظم الاميركيين الرواية التوراتية من غير ما نقد او تجريح . فوقع في وهمهم ان فلسطين كانت ، تقليدياً ، يهودية ، وان القدس مدينة يهودية . بل لقد ذهب بعضهم الى حد الاعتقاد بان اوروشليم تعني مدينة اليهود . ومن ناحية ثانية ، فان قلة قليلة منهم كانت تعرف شيئاً عن العرب من غير طريق الافلام السينمائية او روايات اذيث هول Hall . وقليلٌ هم الاميركيون الذين كانوا قادرين على ان يعطفوا كثيراً على امة تصوروا انها تحيا في الصحراء وتجهل الحياة الحضرية جهلاً تاماً . وهنا اضفتُ قائلا إنه لو عرف الاميركيون ان الكثرة العظمى من العرب تنزل المدن ، بل لو عرفوا ان العرب هم الذين انشأوا الحياة الحضرية في العالم ، اذن لاستولى عليهم الدهش . وعلى اية حال فان الاساس الصحيح لهذه اللامبالاة التي يبديها

الاميركيون نحو العدوان الصهيوني انما يتمثل في ما علق باذهانهم، منذ عهد الصبا الأول، من روايات التوراة وما تنطوي عليه من دعاية للعبرانيين.

ووجد الضابطان العراقيان ان عرضي للمسألة يتفق مع آرائهما فيها. واشار عبد المطلب بك الى ان الانطباعات، حتى الاجنبية منها، لا تقاوم في سهولة ويسر.

ثم إنه ضحك وقال:

« انها تشبه الى حدٍّ ما حاجي بابا وماكينته الذهبية. »

فسألته:

« تعني حاجي بابا الاصفهاني؟ »

فقال عبد المطلب بك:

« أجل. ولكن الجزء الثاني من الكتاب: « حاجي بابا في لندن ». هل قرأته؟ »

فسلّمتُ بجهلي له.

فقال عبد المطلب بك:

« ينبغي ان تفعل. فعندما رافق حاجي بابا احد السفراء الى لندن فرغت جيب الرجل الخبيث المخادع من المال، وعملَ ماكينة يُفترض فيها أن لا تصنع شيئاً غير الليرات الذهبية. وبعد فترة قصيرة وجد رجلاً غنياً شرهاً أبدى رغبته في شراء الآلة. ولكنه أصرّ على تجربتها اولاً.

« حسناً، وكان حاجي بابا قد استعار ليرتين ذهبيتين من محفظة سيده ووضعهما خلسةً في الماكينة. وبعد شيء من الشعوذة

والمهارة اليدوية جعل الماكينة تقيء ليرتين ذهبيتين ، فأعجب المثري الطماع اعظم الاعجاب بهذه الآلة العجيبة ، وسارع الى دفع الخمسة الآلاف جنيه التي طلبها حاجي بابا ثمناً لها ، واستعد للمضيّ الى منزله .

« وهنا ما كان من حاجي بابا إلا أن انتحى به زاوية وقال له في كثيرٍ من الصدق والاخلاص : « هناك شيء واحد لم اقله لك بعد ، وهو على جانب عظيم من الأهمية . فاحفظ ما سأقوله لك الآن جيداً . عليك كلما حاولت ان تصنع الذهب بواسطة الماكينة ان لا تسمح لعقلك ان يتصور، **مهما تكن الظروف** ، حماراً ابيض متدلي الاذنين . لأنك اذا تصورتَ ذلك مرة فسدت المحاولة وخربت الماكينة ! »

فقال النقيب مكي بالالمانية :

« هذه دعابة بارعة ! »

وأقررته انا وعبد المطلب بك قائلين :

« أجل ، انها دعابة بارعة حقاً ! »

وفي صباح اليوم التالي طرق صبيّ الغرفة الباب ، واعلمني ان سيدة جميلة ترغب في التحدث اليّ ، وانها الآن في ردهة الانتظار. وعلى الرغم من انني اعتقدت باديء الرأي ان في الامر خطأ ما ، فقد نهضت عن كرسيّ - وكنت اكتب رسالةً - وعقدت ربطة عنقي ، ولبست سترتي، ثم هبطت السلم الى ردهة الانتظار.

كانت « أقدس » عضواً في احدى الجمعيات النسائية العراقية ، وكانت تعمل في حقل الصحافة. لقد اطّرحت « اليشمك » او

الحجاب، والعباءة الرتيبة السوداء ،وارتدت زياً غربياً يذكّر المرء بالشارع الخامس في نيويورك ، والشانزيليزيه في باريس . ولم تكن لتعدو الخامسة والعشرين من العمر ، ولولا بعض الظلام الذي اخذ يظهر في عدسة عينها البلورية اليسرى إذن لكانت فتاة بارعة الجمال الى حد متطرف .

وكانت « اقدس » قد تسامعت برغبتي في زيارة الجبهة من احد معاوني الزعيم عبد المطلب بك، فهي تحب ان تأخذ مني حديثاً، وعلى أية حال ، فلست ادري على وجه التحقيق أينا وجّه الى الآخر عدداً اكبر من الاسئلة . واذكر اني سألتها عن وضع المرأة في العراق . وكان ذلك شيئاً تتوقعه « اقدس » . فما ان سمعت سؤالي هذا حتى أغرقتني بفيض من المعلومات والاحصاءات . ولقد عرفتُ منها أن النساء في العراق انما يلبسن البشك (الحجاب الذي يغطي النصف الادنى من الوجه) لأنهنّ يؤثرنه، لا بسببٍ من رغبة ازواجهن فيه . وأنه ليس ثمة اضطهاد او كبتٌ لحرية النساء في أيما مكان في العالم العربي ، وأن الفتاة العراقية تقبل على التعليم الجامعي في لهفة حتى ليبلغ عدد الطالبات في الجامعة ثلث عدد المسجلين فيها من نساء ورجال .

وفوق ذلك حدثتني أقدس عن الصحافة في بغداد . كان ثمة عدةٌ من الصحف وصحيفة واحدة تصدر باللغة الانكليزية،ولكن رجال الصحافة نادراً ما يستطيعون الاجتماع بكامل هيئتهم لأن واحداً منهم على الأقل يكون نزيل السجن ، بسبب من مقال كتبه في نقد اعضاء الحكومة ، مثل نوري السعيد باشا، رجل

للسياسة العراقية العجوز الداهية ، أو ايما رجل آخر يؤيده ذلك الداهية . وقد جرت العادة بأن لا يطول مقام الصحفيين في السجن ، وأن يُمنحوا الحرية في الحال ، بعد ان يقضوا فترةً قانونية ما ، وبعد ان يعبروا عن استعدادهم للاعتذار .

وكانت الصحيفة البغدادية الوحيدة الصادرة بالانكليزية ، واسمها «البريد» Post ، نادراً ما تنشر أيما شيء يؤذي أحداً ، ومن هنا لم تزر غير قلة قليلة من محرريها ومخبريها السجون العراقيـــة الا في مهامّ صحفية ، طبعاً .

وقالت أقدس في شيء من الزهو :

« إن رئيس تحرير الصحيفة التي اعمل فيها نزيلُ السجن منـذ شهر او يزيد . »

وفي اليوم التالي دُعيت الى العرض العسكري الذي قامت به القوات العراقية في سهل رملي يقع على مبعدة ثلاثة اميال ، تقريباً ، من بغداد . ولقد شهد العرض الوصي على العرش ، الأمير عبد الالـه ، خال فيصل الثاني ملك العراق الشاب . ولم يكن الملك فيصل قد بلغ آنذاك الخامسة عشرة من عمره ، وكان يتلقى العلم في كلية « هارو » البريطانية ، وكانت امه الملكة عالية مقيمةً في لندن لكي تكون على مقربة منه . اما ابوه ، الملك غازي الأول ، فكان قد قضى نحبه عندما انقلبت به ، منذ بضع سنوات ، سيارة من سيارات السباق كان يسوقها في سرعة بالغة .

وتلقى الأمير عبد الالـه علومه في كلية فيكتوريا بالاسكندرية حيث اكتسب شيئاً من « الرسمية القاسية » التي يتكلفها البريطانيون

في خارج بلادهم ، ومن هنا تجـــده لا يشارك ملوك شبه الجزيرة العربية وشيوخها في مسالكهم الديموقراطية الصارخة ، مع الرعية . ولقد اضطرّ هو وحكومته الى ان يغادر بغداد الى القدس عندما ثار رشيد عالي الكيلاني ثورته المعروفة . ولكنه ما لبث ان رجع الى العاصمة العراقية ، بعد اخفاق تلك الثورة .

وتفصيل ذلك أن جزءاً كبيراً من الشعب ، وبخاصة الجيش ، كان ناقماً آنذاك على ما كان البريطانيون يتمتعون به من نفوذ في العراق . فقد نصت معاهدة عام ١٩٣٢ التي انهت عهد الانتداب ، على ان يضع العراق طرقه ومطاراته ووسائل مواصلاته كلها تحت تصرف بريطانية زمنَ الحرب . وعـــلى ان يحتل البريطانيون مطاري الحبّانية والبصرة وغيرهما ، وأن تعيّن بريطانية ضبـاط « ارتباط » في العراق ، كانوا يؤلفون في الواقـــع بعثة عسكرية تتمتع بقدر كبير من السلطة في وزارة الدفاع .

ووقع انقلاب رشيد عالي ربيع عام ١٩٤١ . وفي الحـال طوّقت القوات العراقية مطار الحبانية ، وأعلنت حالة الحرب بين العراق وبريطانية . واستشعر البريطانيون خطورة الموقف .

وكانت حامية فلسطين البريطانية منشورةً آنذاك في شمالي افريقية والشرق الاوسط . وكانت سورية خاضعـــة للسيطرة الالمانية وقوات فيشي الفرنسية ، وها هو ذا العراق ينتقل الى المعسكر المعادي . واذن فلم يبق في صف الحلفـــاء غير شرقي الاردن وفلسطين .

وبرغم هذا استطاعت الفرقة العربية الاردنية ، بقيـــادة

الماجور جنرال جون باغوت غلوب – وهو ايرلندي كورنوالي* ذو دعابة مرحة ومعرفة مدهشة باحوال العرب – ان تشغل القوات العراقية ريثما تصل الفرقة البريطانية التي قادها الجنرال كينغستون والتي قضت على الحركة . وما هي الا فترة حتى رجع الوصي وحكومته الى بغداد ، وغادر رشيد عالي الكيلاني البلاد ليلجأ آخر الامر الى المملكة العربية السعودية . لقد حارب العربي اخاه العربي فلم يجدا في القتال متعة او لذة . وبعد ثماني سنوات انقضت على تلك الاحداث ، لا يزال الضباط العراقيون شديدي النقمة على البريطانيين ، ولكن ليس ثمة ما يدل على انهم سوف يقومون بثورة جديدة .

وبين الجيوش الصغيرة ، يُعتبر الجيش العراقي واحداً من جيوش الطليعة . وهو مزوّد بالاسلحة البريطانية ، وبالمصفحات والطائرات البريطانية . ولكن ما يملكه من الصنفين الأخيرين قليل . ومن هنا لا يزال العراق يعتمد الى حد بعيد على سلاح الفرسان الذي يتمتع بدربة فائقة للعادة وبمعدات كاملة . والواقع ان ميل العرب الطبيعي الى الفروسية انضاف ههنا الى التدريب النظامي الذي تتيحه مدرسة الفرسان الممتازة لطلابها ، فكان لنا من ذلك الفارس العراقي الحديث . وليس من ريب في ان الفرسان العراقيين خليقون بأن يرفعوا رأس بلادهم عالياً في اعمال الكشف وشن الغارات .

---

* نسبة الى مقاطعة كورنوال Cornwall في الجنوب الغربي من انكلترة. [المعرب]

وقبل ان اصل الى المكان الذي جرى فيه العرض العسكري - وقد وصلت قبل الوصي على العرش واعضاء حكومته بفترة غير يسيرة - كان العمال قد اقاموا مجموعة من السرادقات الفخمة ذات الالوان النابضة بالحياة . وكان اوسعها وابرعها زخرفاً يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً ، وعمقه اربعين قدماً ، وكانت له واجهة مفتوحة يقيها رفرف او مظلة عرضها خمسة وثلاثون قدماً . وفي داخل السرادق مُدّت السجاجيد الشرقية الفاخرة ذات النقوش الملكية والثمن الملكي ايضاً ، ووضع صف من الكراسي الجلدية الوثيرة المنجّدة ليجلس عليها سمو الوصي والوزراء ، وخلف ذلك الصف وضعت كراسي اخرى هي دون الاولى فخامة ولكنها وثيرة مريحة ليجلس عليها النظارة من المرتبة الثانية . وأقبل النُدل بالشاي الساخن وبالقهوة . وكانت منضدة صغيرة قد وضعت امام كرسي الوصي ، وعليها عدد من علب السجاير الانكليزية والاميركية .

وطوال عدة ساعات ، كنت خلالها اذرع المكان جيئة وذهوباً ملتقطاً شريطاً سينمائياً للاستعراض ، مرت قطعات الجيش المدرعة امام سرادق الامير تتبعها فرق المشاة التي كانت تفصل حيناً بعد حين ما بين السيارات المدرعة ، والدبابات الصغيرة ، وسيارات الجيب . كذلك مرّت امام السرادق عدة بطاريات ممتازة من المدافع المضادة للطائرات والاسلحة المضادة للدبابات . وعلى الجملة ، فقد استغرق العرض العسكري ما يزيد على ثلاث ساعات . وكان كل امرىء سعيداً به . حتى انا كنت به

سعيداً ، برغم العواصف التي كانت تصفع وجهي بالرمـــل وبرغم التعب الذي استبدّ بي اثناء كرّي وفرّي اقتناصاً للصور السينمائية .

وكنتُ قد دعيت ، قبل ذلك ببضعة أيام ، لزيارة كليـــة الشرطة قرب بغداد . فقد سبق لي أن هنـأت ، صادقاً ، مدير الشرطة علي باشا على الروح الممتازة التي يتحلى بها الشرطي العراقيّ ، فكافأني على هذا الثناء بأن دعاني الى زيارة كلية الشرطة التي يشرف على ادارتها رجل ينتمي الى واحدة من ابرز الاسر العراقية ، هي اسرة الواوي .

ولعل قوة البوليس العراقية هي في طليعـة قوى البوليس في العالم أيضاً . فرجالها يُختارون على أساس من الذكاء والسلامـــة الجسدية والخُلقية في وقت معاً ، ثم يُخضعون لأقسى التدريب على ايدي خبراء في مختلف اشكال العمل البوليسي ، ابتداءً من تنظيم السير ، الى التمرينات الخاصة بالصراع الياباني المعروف بـ «الجودو» وباستعمال الاسلحة الصغيرة ، الى إنقاذ ضحـــايا الحرائق وأصول الأسعاف الأوليّ . والواقع أن كل فرد من افراد الشرطة العراقية يتكلم ، عادةً ، لغتين أو اكثر ويُلقّن أن مهمته هي حفظ النظام ومساعدة المواطن والاجنبي في كفاءة وكياسة . ولقد وجدت الشرطيّ العراقي ودوداً ، مُسعفاً ، وكيّساً في مختلف الظروف والأحوال . وفي استطاعتك ان تقدر مدى كفاءة الشرطة العراقية اذا علمتَ أن الجرائم قليلة جداً في بغداد ، وأن المواطن والاجنبيّ يستشعران الأمن والسلامة في شوارع بغداد بعد أن يهبط الليل . وعلى اية حال فالشرطي العراقي ، بقبعته الضخمة الواقية من الشمس

الشبيهة بالخوذ المغولية ، يبدو مخيفاً لاول وهلة ، ولكنّ شيئاً من الاتصال به ما يلبث ان يصحح هذه الانطباعة ويغيرها .

●

وأخيراً أجازت لي وزارة الدفاع ان التحق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة الفلسطينية . ففيما كنت أشهد استعراض الجيش العراقي اشعرتني وزارة الدفاع بذلك . وكان عليّ ان اكون عند مدخل الوزارة في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي لالتحق بالقافلة العسكرية القاصدة الى فلسطين . وفي تلك الليلة ، شخصت الى مشرب اوتيل سندباد ، واشتريت ثلاث زجاجات من الجعة ، ثمن كلٍّ منها أربعمئة فلس . إن الغلاء لم يهلسني هذه المرة ، فقد كنت ذاهباً الى الحرب !